الادب الحضرمى وعلاقته بمصر

بقلم الاستاذ طه السقاف العلوى (سنغافورة)

تربط القطر الحضرمى بالقطر المصرى روابط متينة العرى ، متماسكة الحلقات ، أعظمها وأبرزها مظهراً رابطتا الدين واللغة ؛ فمصر من العهد الذى غمرها الاسلام ، وملأ نجاجها قد ارتبطت بالأصقاع الاسلامية ـ قاصيها ودانيها ـ ، وأصبحت شقيقة لهن ، تتألم لألمهن ، وتغتبط لغبطتهن ، وترى أن من نتائج سعادتها رفاهة عيش شقيقاتها ، وانبثاق فجر المعارف والعلوم فى ربوعها ، ورؤيتها إياها رافلة فى حلل الحرية والنهوض .

وإذا كانت هذه نظرة مصر إلى جاراتها المسلمة ، وشعورها نحو تلك الأصقاع المنثورة التى تمت إليها برابطة الدين ، وجامعة الاسلام ، ووحدة اللغة ، فان مما لا مشاحة فيه ولا ريب أن شعور وعواطف الشعوب المسلمة تجاه مصر لهو أحكم عقدة ، وأشد إبراماً ، وأعمق أثراً ؛ وكيف لا يكون كذلك ؟ ... ومصر ما برحت مصدر الثقافة ، ومنبع المعارف ، ومحط الآمال ، ومناط الرجاء ؟ وأن العالم الاسلامى ما انفك يرنو إليها ـ ككلية جامعة لأشتات العرفان ، وكمصدر رئيسى للثقافة الدينية ـ ؛ وبالرغم من وجود حركات هدامة ، ونعرات جاهلية حديثة العهد ـ يقوم بها فئات من أبناء مصر ـ من التشدق بالفرعونية ، والتغنى بالقومية ، مما يرمى إلى فصل مصر عن شقيقاتها الاسلامية ؛ ويقذفها فراسخ عن عطفهن ـ كما هى الحال الواقعة فى تركيا ـ فلا يزال لمصر فى قلوب الناطقين بالضاد منزلة الحب المكرم .

وفى طليعة البلدان التى تنظر إلى مصر ـ كما ينظر الفلكى إلى اصطرلابه ـ « حضرموت » التى كانت ـ ويا للأسف ـ أسباب المواصلات ، وسبل الاحتكاك بينها وبين مصر ، متعسرة لصعوبة أسباب النقل والمواصلات ، ومع ذلك فانها تنظر إلى مصر بعين الاجلال والاكبار وتدين لها بكل ما تنعم به فى نهضتها الأدبية الحالية ، بل فى كثير من مناحى حياتها الدينية ، إذ أن أمهات الكتب الدينية وأسفار التاريخ التى تدرس فيها لم تستجلب إلا منها ، ولا عبرة بوجود بعض كتب طبعت فى الهند ، فهذه ـ على ندرتها ـ لم تكن من أمهات الكتب وكبرياتها .

وليس الأدب ـ فى الحقيقة ـ إلا شعوراً وأحاسيس وأخلاقا يرسمها قلم الناظم والناثر على القرطاس ، فتلمس فيها تقدم الأمم أو تأخرها ؛ وكلما ضربت الأمة بسهم وافر من المعارف ، ونضجت ملكاتها العقلية ، كانت أقرب إلى الاجادة ، وأسرع إلى النبوغ فى مقاصد الأدب وأغراضه من غيرها ؛ ولا يعزب عن البال أن للبيئة والمكان أثرا فعالا فى ازدهار الأدب أو تقويمه ؛ بيد أنه باعتباره مادة الحياة ، أو بعبارة أخرى « تراث إنسانى » اشتركت فيه

جل الأمم ـ وإن اختلفت صوره وأشكاله من حيث قوته عند البعض وضعفه عند البعض الآخر ـ فإن هذا يرجع أمره إلى استعداد الوسط ، وقابلية البيئة كما علله الباحثون.

ومهما يكن من ضؤولة المجهودات الأدبية ونتاجها بحضرموت ، واندثار آثار كثير من حملة البيان وأساطين القريض بها ـ لعدم اعتنائهم بالتدوين من جهة، واستفحال شأن الأباضية والخوارج فيها من سنة ١٢٥ إلى سنة ١٠٦٠ هـ، وتمشى الروح الصوفية بعد ذلك، من جهة أخرى ـ فلا تزال أسفار التاريخ تحفظ لنا جزءاً يسيراً من تراث الأدب الحضرمى الخالد ، وهو وإن كان ضئيلا، غير أننا نستطيع أن نقيس به الروح الأدبية فى «حضرموت»، وتلمس بأيدينا المدى الذى بلغت إليه .

ويجدر بنا ـ قبل الدخول فى مضمار هذا البحث ـ أن نقسم تاريخ «حضرموت» إلى ثلاثة أدوار ، وغرضنا من هذا التقسيم أن نزف إلى القارىء ـ غير الحضرمى ـ صورة مكبرة للقطر الحضرمى من العهد الجاهلى إلى عهدنا هذا ، ولعلنا نؤدى بهذا بعض الواجب علينا نحو قطرنا المحبوب .

الدور الأول ـ الدور الجاهلى: لا امتراء فى أن «حضرموت» كانت موطن أقوام عاد ومقر أقيال التبابعة ، ومعقل ملوك كندة وحمير ؛ وآثار أولئك الأسلاف لا تزال باقية وموجودة حتى الآن، وقد بلغت «حضرموت» وقتئذ من المدنية والحضارة مبلغا عظيما لا يجهله المطلع ؛ وقد قص القرآن علينا شيئاً كثيراً من مدنيات عاد وثمود وتبع، ومن الأدلة التاريخية الدالة على أهمية «حضرموت» وخطورة مقامها ، أن لقب «تبع» متوقف على الاستيلاء عليها، وهذا يبرهن على مركز حضرموت الممتاز فى تلك القرون السالفة ، وإلا فلم يتوقف لقب تبع على تملكها ودخولها تحت الطاعة ؟ . . . .

وقد أجمع المؤرخون واتفقوا على أن آثار الجزيرة العربية ـ بأقسامها الخمسة ـ ما برحت مطمورة تحت الرمال، وإنما دل ما ظهر منها ، واكتشف صدفة ، على أنها جزء من اليمن الذى لا يقل فى حضارته ومدنيته روعة وجسامة ، عن الحضارات القديمة من عراقية وشامية ومصرية، فإن ما عثر عليه منذ سنوات قريبة بـ «هجر» ـ وهى قرية فى مخلاف «صداء» ـ وما اهتدى إليه بعض العرب فى «مرخة» عفواً ، من سبائك ذهبية ، ومومميات محلاة بجواهرها وأقراطها الذهبية ، ومن أصنام من الذهب ، وبيوت تحت الأرض مطمورة صقلت بالرخام ، ومعاقد وكنوز لا تتسع هذه العجالة لسردها ـ مما لا يبقى معه أدنى شك فى تلك الحضارات الزاهية ، والمدنيات العظيمة ، ولو عنى بالكشف عنها ـ لتكشفت لنا آثارها المجهولة ، ولتقدمت المعلومات عن تاريخ القطر الحضرمى وما له من عظمة .

وفى هذا الدور ـ أعنى الدور الجاهلى ـ لم تترك لنا الأيام كبير أثر عن الأدب الحضرمى لعوامل لا تخفى ؛ على أن ما وصل إلينا فى هذا الباب، هو ما يتيه به الحضرمى ويجر أذيال الزهو

والافتخار ؛ فإن الملك الضليل ـ امرأ القيس بن حجر الكندى واسطة عقد شعراء الجاهلية، ورأس فحول رجال المعلقات، والمتفوق على فرسان القريض فى السبق إلى كثير من المعانى الدقيقة، لإجادته القول فى بكاء الاطلال والدمن ؛ وتشبيه النساء بالمهى والظباء ؛ مما امتاز به هذا الشاعر على أضرابه وبذهم فيها ـ إن ذلك الشاعر الفحل ، لم يكن إلا حضرمياً ، وحسب « حضرموت » فخرا أن يكون لها رأس الفحول من رجال المعلقات وأبرز شخصية فيهم .

الدور الثانى ـــ دور الاسلام : وهذا الدور يبتدىء من بدء انتشار الاسلام إلى حوالى ظهور الدولة الكثيرية فى أواسط القرن السابع ، وفى هذا الدور أنبأنا التاريخ أسماء كثير من شعراء الحضارم ، نكتفى منهم بذكر : امرىء القيس بن عابس الكندى الصحابى المشهور ، وكليب بن أسد الحضرمى الذى وفد على النبى صلى الله عليه وآله وسلم بكسوة من نسيج حضرموت ، وخاطبه بهذه الأبيات :

من وشز برهوت تهوى بى عذافرة إليك يا خير من يحفى وينتعل
تجوب بى صفصفاً غبراً مناهله تزداد كلا إذا ما كلت الابل
شهرين أعملها نصاً على وجل أرجو بذاك ثواب الله يا رجل
أنت النبى الذى كنا نخبره وبشرتنا بك التوراة والرسل

وعلى كل حال فإن الروح الأدبيـة فى ذلك العهد لا تخلو من ضعف وركاكة إذا قيست بغيرها ، فإن ذلك العهد عهد ازدهار ونهضة للعلوم والفنون والاداب فى العالم الاسلامى بأسره ؛ فلم يظهر فى حضرموت فى صفوف نبهاء الذكر والنوابغ فى تلك القرون منهم أحد ؛ ويقدم العلماء ـ الدارسون لسر تقدم الشعوب ونهضاتها ـ سبباً وجيهاً لذلك : وهو استفحال شأن الأباضية والخوارج بها ، وامتلاء الجو بغازات بدعتهم ونحلتهم الخبيثة فكانوا شراً مستطيراً على حضرموت وسماً زعافاً ذاقت منه الأمرين ؛ ومن المدهش أن عمال العباسيين فى حضرموت لم يستطيعوا أن يقضوا على شرور هذه النحلة ويطهروا حضرموت من سمومها الخانقة ، حتى جاء الامام السيد الشريف أحمد بن عيسى العلوى الحسينى جد السادة العلويين بحضرموت وجاوا وغيرها مهاجراً من البصرة بعد ظهور طائفة الزنج وتعذيبهم المسلمين فى زمن الخليفة المعتمد بن المتوكل العباسى ، ثم استيلاء القرامطة على البصرة ـ جاء هذا السيد المهاجر فى الله إلى حضرموت ـ لحسن حظها ـ فوجدها تعج ببدعة الخوارج ونزعات الأباضية والنواصب ؛ فشمر عن ساعد الجد وحاربهم بالارشاد والدعوة تارة وبالسيف والسنان تارة أخرى ، ولا يجهل المطلع على التاريخ تلك الواقعة المشهورة « بحران » بين العلويين ومن انضم إليهم من الحضارم وبين الأباضية ، وفى ذلك يقول الشاعر الحضرمى :

فمن مبلغ عليـا معد وطيئاً وكندة من أصغى لها وتسمعا
يمانيهم من حل « بحران » منهم ومن حل أكناف الغطاط فلعلما

الدور الثالث : وهو يبتدىء منذ دخلها الامام المهاجر فى الله إلى ما بعد القرن الثانى عشر، فان هذا الدور كان أحسن حالا ، وأرغد عيشاً ، وأقرب إلى التحسن الأخلاقى والأدبى من ذينك الدورين السابقين؛ ولولا انتشار الروح الصوفية فى «حضرموت» فى ما بعد القرن السادس انتشاراً هائلا ، لكانت حال الأدب الحضرمى غيرها فى هذا الوقت ، ولكن الروح الصوفية التى تغلغلت فى نفوس تلك الأجيال وتمكنت منهم جعلتهم ينظرون إلى الحياة وما فيها من مبهجات ومسرات كأشياء تافهة لا تستحق التقدير ، فنتج من هذا خبوء شعلة الشاعرية ، وانطفاء جذوة العاطفة المحفزة للنظم .

وأشهر مشاهير شعراء تلك القرون هم : الشيخ محمد بن أبى الحب التريمى ، ولنورد لك شيئاً من شعره ، قال — واصفاً ومادحاً تريم ، وهى إحدى عواصم القطر الحضرمى — من قصيدة مطلعها :

تجنب أرضك الوبأ الوخيم وجانب سرحك السدم السديم

ومنها : تعادل حرها والبرد فيها فلا قر يضر ولا سموم

فلو نظرت فلاسفة إليها لقالت : جنة الدنيا تريم ! !

ومنهم الشيخ عبد الرحمن حسان ، وله شعر أكثره مدح فى علماء السادة العلويين بحضرموت ، ومنهم العلامة السيد عبد الله بن علوى الحداد العلوى ، وللسيد ديوان مطبوع نحيل القارىء إليه .

ومن أولئك : الشاعر الكبير الشيخ عبد الصمد باكثير ، وقد ترجم له صاحب « سلافة العصر » ، وقال صاحب « خلاصة الأثر » عنه : « عبد الصمد بن عبد الله باكثير خاتمة مفلقى الشعراء باليمن ، ونابغة العصر ، وباقعة الزمن » ، وهو الذى قال فيه الشاعر القدير السيد أبو بكر بن شهاب العلوى — عند ما سمع إحدى قصائده — : « ما كنت أحسب أن فى حضرموت من يقول مثل هذا الشعر » ، وله ديوان لم يطبع بعد ، وقد كانت عندنا مجموعة من أشعاره فأخذها أحد الأصدقاء مع الأسف ، على أننا نتذكر له بيتين من قصيدة يخاطب بها السلطان عمر بن بدر الكثيرى ، ويصف علاقته مع سلاطين آل عثمان ، قال لا فض فوه :

فتم بحق ابن عثمان وطاعته تحية هى منكم عن أب فأب

كمثل ما أسر الافرنج من قدم أبوك بدر بن عبد الله ذو الحسب

ومن شعراء حضرموت المشاهير : العلامة السيد عبد الرحمن بن مصطفى العلوى المتوفى بمصر ، وله ديوان طبع قديماً فليرجع إليه من أراده ؛ ومن شعراء الحضارم : ابن عقبة الشبامى ، فان لهذا الشاعر شاعرية قوية وخيالا واسعاً ، ونفساً طموحة تتمثل لك من شعره ، وعندى أن عبد الصمد باكثير وابن عقبة هما أشعر شعراء الحضارم فى الدورين الثانى والثالث ، وإلى القارىء أبياتاً من قصيدة لابن عقبة أترك الحكم عليها للقارىء ، قال:

أصبرت نفس السوء! أم لم تصبرى ... بينى ومن تهوين يوم المحشر
إنى امرؤ عف الأزار عن الخنا ... لم أغش منذ نشأت باب المنكر

ومنها : — يا راكباً لشملة مهرية ... وجناء دوسرة سلالة دوسر
تطوى القفار البيد تنتهب الفلا ... كالبرق يلمع من خلال العثير

ومنها : — حتى إذا ما الليل أبرد شعلره ... وسرت على الوجناء أم حبوكر
بادرتها بالرحل ثم نسأتها ... فجرت كجرى الأجدل المتحدر
ومدورة قامت ولم تلبث بها ... إلا مقام مسلم ومخبر
وبدا الصباح فصبحت من كندة ... بقرار عرصتها سلالة جعفر

وصفوة القول أن الأدب الحضرمى — فى دوريه الثانى والثالث — كان متأخراً كما بينا ذلك فى صدر مقالنا ، وقد أوضحنا بعض العلل والأسباب لتأخره واغطاطه ، مستندين فى ذلك إلى قرائن الحياة العقلية فى حضرموت فى تلك العصور — درسناها بالاستقراء علاوة على النصوص والوثائق التاريخية التى اعتمدنا عليها فى إصدار هذا الحكم ؛ بيد أن حضرموت إذا ما أرادت أن تباهل بشعرائها البارزين فلا أظنها تقدم على هذه المباهلة إلا على أكتاف الشاعرين الفحلين: ابن عقبة وعبد الصمد ، فهذان الشاعران — ولا غرو — هما الدرتان اللتان لمعتا فى تلك العصور ، وخلدتا لحضرموت اسماً لا يمحوه كر الأيام .

وفى مختتم القرن الثالث عشر . هـ ، سرت فى القطر الحضرمى حركة مباركة ونهضة أدبية فتية ، فتطورت الأفكار وأخصبت القرائح ، وأصبح الشعر — بعد أن كان موقوفاً على الدمن والاطلال والرثاء والمدح — ملتق ؛ تشاهد على لوحته مناظر صادقة وصورة طبق الأصل للشعر الذى يعبر به عن خلجات النفس ونبضات القلب ؛ ولم تكن النهضة الفكرية التى سرت فى الشرق الغربى قاصرة على مصر وحدها ، كلا . فإن لسوريا والعراق واليمن وحضرموت كذلك نهضات مباركات، بيد أننا لا ننكر أنها قد تكون فى البعض منها قوية عنيفة، وفى غيرها ضعيفة واهية ، تبعاً لطبيعة الأقليم والبيئة ؛ غير أنها تتفق فى مظهرها وهيكلها ، ألا وهو حاجة اللغة إلى أن تعبر عن النفسيات والأغراض بكل وضوح ، مترسمة فى سبيلها منهاجاً يتمشى مع روح العصر ويتلاءم وعقلية أبناء القرن العشرين .

فاذا ما ذهبنا نعد من مشاهير شعراء العصر — بمصر وسوريا والعراق — (شوقى والمرحوم حافظ ابراهيم والرصافى والكاظمى ومطران وإيليا أبو ماضى والزهاوى وبدوى الجبل وشبلى ملاط والمرحوم الرافعى وأحمد محرم وطانيوس عبده) وغيرهم ممن لم تحضرنى أسماؤهم . فلسنا بالمغفلين من شعراء حضرموت السيد العلامة أبا بكر بن شهاب العلوى، والسيد الأستاذ محمد بن هاشم العلوى ، والشاعر المطبوع السيد أحمد السقاف العلوى، والشيخ على با كثير، والسيد صالح الحامدى العلوى، والسيد محمد بن

[البقية على الصفحة رقم ٥٣٨]